

الأدب الساخر؛ بحث في المفاهيم واستراتيجيات التعبير

Satirical Literature: An Investigation into Concepts and Expression Strategies.

* حنان بن قيراط

Hanane Benkirat¹

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة 8 ماي 1945- قالة.

جامعة 8 ماي 1945- قالة (الجزائر).

University of 8 Mai 1945 Guelma (Algeria)

benkirat.hanane@univ-guelma.dz

تاريخ النشر: 2026/09/02

تاريخ القبول: 2026/06/20

تاريخ الإرسال: 2026 / 03 / 15.

مُلَخِّصُ الْبَحْثِ

تسعى هذه الدراسة للبحث فيما يرتبط بمفهوم السخرية واستراتيجياتها التعبيرية التي تبين ملامح النقد والهزاء والاستهزاء، وتعيد تمثّل ردود الأفعال بإيديولوجية سوسيوثقافية خلافة، باعتبارها فعلًا وممارسة اجتماعية لها طابعٌ نفسيّ قبل أن تكون ميزةً وخاصيّة أدبيّة عند بعض الأدباء الغربيين والعرب الذين اعتمدوها بشكلٍ كبيرٍ خدمةً لأفكارهم وإبراز مقاصدهم. وقد توسّع مجالها من الآداب لتشمل أصناف الفنون والمسرح والسينما وغيرها، وبرزت معها استراتيجياتٌ تعبيريةٌ جديدةٌ تخضع للمفارقات والمواقف التي تطالّ مشاعر الآخرين وأذواقهم ومشاعرهم. ومهما تنوّعت واختلّفت تعبيرات الأدباء الساخرة، إلا أنّها وقفت على المحفّي والحقيقي، وحوّث رسائل خفيةً أيقظت الوعي والضمير في المجتمع أو تسبّبت في كشف المستور وممارسات السلطة، ما جعله يخرج عن قضايا الأدب والنقد، كونه أدبٌ هامشيٌّ لا يرتقي إلى مصاف الأدب الرسمي نظرًا لطبيعته وخصوصياته. الكلمات المفتاح: سخرية، أدب ساخر، السخرية في الأدب، السخرية والأدب الهامشي.

Abstract :

This study seeks to research what is related to the concept of irony and its expressive strategies that show the features of criticism, satire, and ridicule, and represent the reactions with a creative socio-cultural ideology. As a social act and practice, it has a psychological character before it is a literary feature and characteristic among some Western and Arab writers who have largely adopted it to serve their ideas and highlight their goals.

* حنان بن قيراط: benkirat.hanane@univ-guelma.dz

No matter how diverse and different the expressions of satirical writers were, they focused on the hidden and the real, and contained hidden messages that awakened awareness and conscience in society or caused the revelation of the hidden and the practices of power, which made it fall outside the issues of literature and criticism, as it is marginal literature that does not rise to the ranks of official literature due to its nature and peculiarities.

Keywords: sarcasm, satirical literature, Sarcasm in literature, Sarcasm and marginal literature.



مقدمة:

اتّسم الأدب في عموميه بالجديّة المطلقة، لكنّه شهد لحظات سخرية أحياناً كلّما تطلّب الأمر ذلك، فكان حضورها يعتمد على استخدام الكلمات بطريقة غير مباشرة لانتقاد الأشخاص، ومعبراً عن ردّ فعلي أو حالة تمزّد على الواقع المرير والظواهر والعادات الاجتماعية أو الأفكار التقليدية البديئة في المجتمع وعالم السياسة، لذا نراها تغوص عميقاً لتلعب على رسم وتصوير المفارقة بشكل كبير ومذهل، وتتطلّب ذكاءً من نوع خاصّ والتقاط تفاصيل الأمور بشكل حسّاس يحمل معنى خفياً خلف المعنى الظاهر؛ فهي لا تكتفي بالإضحك فقط، بل تهدف إلى لفت الانتباه إلى الأخطاء والعيوب بطريقة ذكيّة ومؤثّرة.

ولأنّ السخرية تعدّ أسلوباً تعبيرياً، فقد استُخدمت منذ القديم في الأدب والخطاب الاجتماعي كوسيلة للتعبير عن الرأي وكشف التناقضات في المجتمع، فمنحت الكاتب أو المتحدث فرصة التعبير عن النقد دون مواجهة مباشرة ممّا يجعلها أحياناً أكثر تأثيراً وانتشاراً بين الناس. وقد وجدّ الأدب في السخرية قوّة سخرية تجلب المتلقي وتضحكه. ولأنّ السخرية تقوم على أساس الإضحك، فهي أيضاً شكل من أشكال الأدب الفكاهي أو الأدب الساخر. لذا يُعدّ الأدب الساخر من الجنس الكوميدي الذي يضيف الكثير لصاحبه خاصّة إن امتلكه وإنّ بالتحقير والاستهانة، لذلك فالكوميديا من أصعب أنواع الفن من حيث الأداء والابتكار.

وهذا ما سنحاول بيانه أكثر من خلال بعض المفاهيم المرتبطة بالسخرية وأهم مقوماتها الفنية التي تحضر بشكل كبير في الممارسات اليومية والاجتماعية وإن تباينت في مستوياتها وحدّتها، وكذا تبين حضور السخرية في كثير من النتاجات الأدبية عن الغربيين والعرب، ومعرفة واقع الأدب الساخر بين القديم والحديث، ومحاولة ردّ الاعتبار للأدب الساخر كونه أدباً عامياً وهامشياً.

1 - مفهوم السخرية ومقوماتها:

ترتبط السخرية في معناها اللغوي بالضحك والاستهزاء من شخص، فقد: " تكون ترويحاً عن النفس أو تسريّة عن القلب أو استنكاراً لما يقع أو هزءاً وتندّراً بالخصم" (حسين، 1988، صفحة 64). فيكون محطّ استهزاء قصد الأذية والخطّ وإن اختلفت أسباب ذلك في تأثيرها على نفس المستهزئ به.

وإذا قرأنا ما جاء في محكم التنزيل من آياتٍ مختلفةٍ وردت فيها كلمة السخرية وإن باشتقاقٍ متعدّدٍ وصيغٍ عديدةٍ، لوجدناها مذكورةً في 15 موضعاً وتفيد المعاني اللغوية المرتبطة بالضحك، لأن الاستهزاء والاستخفاف والسخرية والهزء مدعاة للضحك عادةً وهو ما جاء في تنمّة بعض الآيات في قصّة نوح عليه السلام حين هزأ به قومه وضحكوا قائلين له: "يا نوح قد كنت بالأمس نبياً وأصبحت اليوم نجاراً". فكان الجواب فيه تهديدٌ ووعدٌ، في قوله تعالى في سورة هود الآية 38: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَى مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾. ولأنّ السخرية هنا تحمل معنى الجهل والاستهزاء لقوله تعالى في سورة البقرة الآية 15: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، فقد أضاف إليها القرآن الكريم من ألوان القوة والجدّ ما جعلها وسيلةً لردع المتجافين عن إتباع الحقّ والفترة السليمة ومحاولة الأخذ بأيديهم إلى الصراط السويّ. ومثلاً استخدم القرآن السخرية علاناً حين قصد بها تقويم الإنسان فقد نهاه عن الاستهزاء قصداً وظلماً في التوجيه القرآني الكريم مثلاً نراه في سورة الحجرات الآية 11: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ لما في ذلك من ضررٍ أخلاقي واجتماعي وجرح شعور الإنسان وأذيته ومس كرامته وإهانة قدره. وقد كان النبي (ص) يضيّق بما يقول ويفعل الكفار والمشركون، لذلك كان الله تعالى يضرب له الأمثال بمن سبّه من الأنبياء ومسلك الكفار معهم كقوله تعالى في سورة الأنعام الآية 10: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. ويؤكد نصرته لنبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى في سورة الحجر الآية 95: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾. وهنا ندرك مقدار السخرية على النفوس وشدة فتكها بها، مثلاً اتخذها الكفار سلاحاً لإيذاء النبي (ص) والمؤمنين.

وتتمتج السخرية بالهزاء وإن اختلفا في طبيعتها ومادتها، لأنّ الهزاء طريقة مباشرة في الهجوم على العدو، لكن السخرية طريقة غير مباشرة، وترتبط بالاستخفاف والمداعبة والتعريض والضحك والهزء والتندرّ والتهكم والتذليل، إذ: "في السخرية لينٌ أشبه بلين الأفاعي، والساخر أفعى ليس له صوتٌ حين يسير أو حين يسخر ولكنه يقتل بسخريته" (طه، 1979، صفحة 13). لذلك فهي أعظم صور البلاغة عنفاً وإخافةً لما تُظهره من معنى عكس ما يظنه الإنسان... لذلك جعلها كثيرٌ من الأدباء والكتّاب والفلاسفة منهجاً لهم في آثارهم، وجعلوها عادةً عندهم منذ القديم، فكانت سمةً ملازمةً لهم في ممارساتهم، مثلاً يظهر مع شعر الملاحم والتراجيديات القديمة والكوميديا وحتى في الخطب الواعظة، حين تقوم على نبرات متفاوتة ومؤثرة لا يمكن الاستهانة بها: "وتكون السخرية -في بعض الأحيان- سمةً دالةً على قمة اليأس" (طه، 1979، صفحة 14). وهذا لأنّ عنوبة السخرية تكمن في طرافتها، ومرارتها تتجلى في انتقاداتها. وترتبط السخرية عادةً بالنقد المضحك والتجريح الهازئ في تصوير الإنسان بواسطة التشويه قد يصل حدّ الإيلام والإيذاء النفسي أو تكبير عيوبه الجسمية أو الحركية أو العقلية بطريقة خاصة... وقد تعتمد إلى الموازنة والمفاضلة بين الجيد والردّي، وبين محاسن ومساوئ الشيء ونتائجها كما تقتضيه الحال، بما يظهر تعدّد أسباب ذلك عند الساخر: "الساخر المقادير ينقل شخصية المقادير برمّتها ويجعلها رداءً يلبسه ويتاجن به كيفما شاء، فكأنّما هو يتمسّخه" (طه، 1979، صفحة 37). فيعتبرها سلاحاً أقوى من السبّ والضرب والعراك، لأنّ هذه الوسائل نجدها عند الإنسان الضعيف

شخصيًا ونفسيًا حين ينتقل غضبه إلى لسانه وعضلاته، عكس الإنسان الجلد الذي يستخدم مهارات عقله ليستهزئ منه بطريقة خاصة ويُشعره أنه أقلّ منه بما يسبّب له إيلامًا.

من جانب آخر، قد تتولد السخرية نتيجة تعالي الشخص في نفسه وفكره حتى ترتبط بعقيد معينة كعقدة أوديب والترجسية والمازوخية... وينتج عنها شعورٌ بالغرور والعبث لنقد المجتمع أو الإنسان، ويرى نفسه ذا بصيرة في الأعماق تتناول الإصلاح بالإضحك، فيتمتّله مرضًا يسعى لعلاجهِ بالتنفيس عمّا يشعر به، أو بالغضب والاشتمزاز ليعبر عن انفعالٍ يفضي إلى الراحة والسعادة...

ومن هنا ندرك أنّ السخرية ترتبط بمختلف الجوانب النفسية والانفعالية عند الإنسان: "باعتبارها تحتاج إلى تعبير" (طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميجان موريس، 2010، صفحة 131). لذلك نجدُها ملازمةً للكراهية والدهشة والاستهزاء والإنقاص من قيمة وقدر الآخر، وتسعى لبيان المواقف وتعرية الزيف والخطأ بطريقة معينة، فتكون بنقدٍ وهجاءٍ وتلميحٍ أو تصريحٍ وتهكمٍ ودعابةٍ وتعريضٍ... وهي بذلك تدلّ على سعة ثقافة الساخر ومقدرته اللغوية حين ينوّع في دلالات الكلمات لسانيًا ونفسيًا: "فالسخرية وإن ارتبطت دلالاتها بالهزء والتحقير إلا أنّ إقناعها يستدعي ذكاءً وفطنةً شديدين لا يتوقران في أيّ كان، لذلك تُعتبر بعدًا كبيرًا بين المثالية والواقع، فلا يمكن لجميع الناس أن يكونوا ساخرين والآ فُقدت جودتها" (السلمي، 2021، صفحة 379، 380). لذلك يجب على الساخر أن يتميز بمجموعة ميزات: "يجب أن يكون قوي الأعصاب يحمل في طياته روح اللامبالاة أو المجون، كذلك لا بدّ له من أن يكون على قدرٍ كبيرٍ من الذكاء وقوة الخيلة أو الخيال الهازل الذي يمكنه من اقتناص أو ابتداع الصور النادرة التي يستطيع بها إغاطة خصمه من جهةٍ وإضحك نفسه والناس منه من جهةٍ أخرى" (طه، 1979، صفحة 19).

ومثل هذه الصور الساخرة والهائجة يتندعها الفنان بإضافة لمسةٍ من خياله وروحه الهائجة: "فيصغها بصبغةٍ فنيةٍ جديدةٍ أو يجعلها تنبض بنبض يلفت نظر من لم يكن ملتفتًا إليها أو تزيد لفت نظره إليها" (طه، 1979، صفحة 35). أي أنّه يضيف شخصيته وفكره وعبقريته إلى صوره الساخرة ليخلقها من جديد.

ومن هنا يمكن التمييز بين نوعين من السخرية هي:

- السخرية الانتقادية: تقوم على أساس الغاية لا الموضوع، لذلك فهي عملية تأديب مؤلمة مخزية: "لأنّها ما وجدتُ واتّسمتُ بسمة النقد إلّا لتُخزي وتؤلم في آنٍ واحدٍ" (زاده، 2010 / 1390هـ، صفحة 106). ومثل هذه السخرية الانتقادية تقوم على الضحك والتندر للترؤف عن النفس ومتاعب الحياة وآلام النفس وهمومها... ولهذا النوع قيمة كبيرة في تعاملات الناس وممارساتهم اليومية والاجتماعية.

- السخرية العقلية: وترتبط عادةً بالبيئة الفكرية في عصرٍ ما وما ساد من مميّزاتٍ وتياراتٍ وفلسفاتٍ، مثل ما نلّفه في السخرية عند المعتزلة الذين أحسّوا أنفسهم من طبقةٍ مخالفةٍ: "كانوا حين يسخرون أو يتهمّون لا يصدرون في ذلك عن أحقادٍ شخصيةٍ أو ضغائن ذاتيةٍ على نحو ما كان الأمر في ظاهرة الهجاء في الأدب العربي، ولكنهم كانوا يصدرون في ذلك عن فلسفةٍ خاصةٍ قوامها العطف على الناس وتوجيههم إلى عيوبهم حتى يصلحوها" (زاده، 2010 / 1390هـ، صفحة 106، 107). فكانت السخرية والتهكم عندهم بفكرٍ خاصٍ بعيدًا عن العداوات والحقد والكراهية والانتقام والتشفي...

2- مفهوم أدب السخرية:

لأن كانت السخرية ظاهرة إنسانية قديمة، فقد تسرّبت إلى سائر الأنشطة الإنسانية والفكرية والتعبيرية والفنية وصولاً إلى الأدب: "غير أن أسلوب السخرية يختلف من عصرٍ إلى عصرٍ، ويتفاوت من كاتبٍ وآخر" (زاده، 21 / 10 / 1390 هـ، صفحة 102). والجدير بالإشارة أن الأدب الساخر يختلف عن السخرية العادية الممارسة في التعاملات اليومية؛ فكون السخرية مصدر الضحك فقد أصبحت ضمن أساليب الفكاهة في الأدب كالهزل والطرفة والنكتة، وهي تدلّ -كما قلنا سابقاً- على شخصية الساخر ومدى سعة مستواه وتفكيره الذي يعتمد الذكاء وعمق الدلالة في استعمال الكلمات حدّ الالتباس غير المعقول والمألوف، ولهذا لا يمكن أن يكون جميع الناس ساخرين والّا فقدت السخرية جوهرها: "إنّ السخرية تصدر عن نفسٍ مرحةٍ متفائلةٍ بالحياة، وطبيعة لا تعرف الحقد واللؤم، ومزاج يميل إلى الاعتدال، فيخلط الجّد بالهزل" (زاده، 21 / 10 / 1390 هـ، صفحة 102). لذلك فالسخرية فنٌ صعبٌ: "إذ أنّها تتطلب التلاعب بمقاييس الأشياء تضخيمًا أو تصغيرًا، تطويلًا أو تقزيمًا. هذا التلاعب يتم ضمن معيارية فنية هي تقديم النقد اللاذع في جوٍّ من الفكاهة والإمتاع" (زاده، 21 / 10 / 1390 هـ، صفحة 102).

وقد تأسس نوعٌ جديدٌ في الأدب، مستقلٌّ في أفكاره وموضوعاته عُرف بالأدب الساخر الذي ارتبط بالفرد والمجتمع والقضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية، ولا يعني الأدب الساخر الكتابة المضحكة أو الضحك من أجل الضحك، فهذا يسمى تهريجًا، بل هو: "كوميديا سوداء تعكس أوجاع المواطن السياسية والاجتماعية ويقدمها بقلبٍ ساخرٍ" (زاده، 21 / 10 / 1390 هـ، صفحة 102). وهو خاصية في الكتابة تجعلنا نعبّر عمّا في قلوبنا بطريقة كوميديّة لترسم البسمة على الوجه أو تضع خنجرًا في القلب، فتحول الألم إلى متعة، والحزن إلى إبداع، وتوصل رسالة تجعل القارئ يبكي من فرط الضحك أو العكس.

وهنا نقف السخرية سدًا في وجه ما يواجهه الإنسان من إحباطات في الواقع لتكون له القوة في مواجهة المصير بأسلوبٍ ساخرٍ تهكّي: "من هذا تتزاوج السخرية في وجهها الهازل مع الألم، فيأتي لوقعها صدى غريب، يمتزج فيه اليأس والرجاء، الدمعة بالضحكة، المأساة بالملهاة، في خلطٍ مذهلٍ. فالسخرية رغم شكلها الهازل ذات وجهٍ مأساويٍّ ينطوي على فجاعةٍ مدهشةٍ إزاء لا معقوليات الشرّ والحديعة في هذا العالم" (زاده، 21 / 10 / 1390 هـ، صفحة 104). وهنا تنطلق السخرية للكشف عن مختلف الحقائق المزيّفة عبر قهقهةٍ عابثةٍ مثيرةٍ للإحساس المضحك المبكي في آنٍ، فهي نقدٌ يعيد البناء بعدم الهدم وطعنٌ لاذعٌ وهجومٌ متعمّدٌ في ثوب فكاهةٍ، وتترك في النفس وجعًا مصيبًا يسعى للأفضل دائماً، وإن اختلفت حدتها وأساليبها وطرقها حسب ما تقتضيه الظروف والأحوال لتكشف طبيعة ما تعلق بها؛ فقد تكون بالاستهزاء أو التجاهل أو أساير الوجه أو هزّ الرأس والكفين، أو بمعالجة الشيء الحقيق كأنه شيءٌ عظيمٌ والعكس (الذم بما يشبه المدح)...

ولا يكتفي الأدب الساخر بإتقان اللغة الواصفة فقط، وإنما تكون له القدرة الكافية على الإبداع ومفاجأة القارئ بقلب الوضعيات، فيخرق بذلك النمطية المعهودة لتبدو غير مألوفة.

3- السخرية في الأدب الغربي:

نشأت السخرية مع الوجود الإنساني منذ الأزل، وارتبطت بالممارسات السياسية والقهر والظلم والعدوان والاستبداد... وقد كشفت الدراسات والحفريات الأثرية عن وجود الرسوم الكاريكاتورية والساخرة التي خلفها الإنسان على الجدران والكهوف والمغارات منذ الحضارات العالمية القديمة؛ فقد ارتبطت السخرية عند الإغريق والرومان معنى ودلالة بكلمة إيرون Iron ومواقف هزلية وُجدت في الملهة اليونانية تبعث على الضحك والاستهزاء المفضي للألم النفسي، فكانت: "وصفاً للأسلوب في كلام إحدى الشخصيات بالملهة اليونانية القديمة المستب ب Eiron وكانت هذه الشخصية تتميز بالضعف والقصر مع الحبث والدهاء، كما كانت دائماً تتغلب على شخصية اللازون Alazon الفخور الأحق، وذلك عن طريق الخداع وإخفاء ما يمتاز به من قدرة وذكاء" (مجدي وهبة، كامل المهندس، 1984، صفحة 198).

كان ذلك بأسلوبٍ مميّز في الكلام فيه إيجاءٌ صريحٌ وضميٌّ يعكس الموقف، كما تنبأ سقراط وأفلاطون وأرسطو وكثير من الفلاسفة بعدهم في محاوراتهم التي تميّزت بالتظاهر بالجهل وإخفاء الذكاء والبرهنة على الرأي للتسليم به آخرًا. أي أنها: "منهجٌ جدليٌّ يعتمد على الاستفهام مع التظاهر بالجهل بقصد جعل الطرف الآخر في المحاوره يدلي برأي خاطئ يضطر إلى تصحيحه بنفسه" (مجدي وهبة، كامل المهندس، 1984، صفحة 198). لذلك كثيراً ما نجدها مرتبطةً بالجوانب البلاغية، لأنها طريقة في الكلام يعبر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل: "تمثل السخرية في منهج جدلي يعتمد على الاستفهام بمفهومه البلاغي، إذ يعتبر طريقة في توليد الثنائية والتعليم على البعد المعرفي" (علوش، 1985، صفحة 110). وهذه الطريقة تُستخدم للاستمتاع والتشويق ومهاجمة بعض أنماط السلوك البشري وعرض الصفات السيئة كالبلخل والغرور وتقديم حلول لها في فنون الأدب خاصةً القصص والدراما.

وقد تظهر السخرية مثلاً حين تمضي الأحداث عكس توقعات الشخصية أو القارئ شيئاً لا تعرفه الشخصيات الأخرى؛ ففي المأساة اليونانية أوديب ملكاً التي كتبها سوفوكليس، يتشاجر أوديب مع رجلٍ ويقتله ولا يعرف أنّ الرجل هو لاويوس أبوه. وتكمن السخرية هنا في أنّ أوديب قد لعن نفسه وقتل أباه دون أن يدري بسخرية القدر التي تتدخل في رسم الأقدار ولا يستطيع الإنسان تغييرها بل يقف ساخراً منها فقط كحال أوديب... وفي الملهة فنجد أرسطو فائيس يسخر من المجتمع الإغريقي في القرن الخامس الميلادي.

أما عند الرومان، فقد اكتمل فن السخرية الأدبية مع اثنين من الكتاب القدامى: هوراس الذي تميّز بالبراعة ومثل السخرية الباردة حيث كان ينتقد بشكلٍ عام الطبيعة البشرية وحماقات الإنسان. جوفينال الذي مثل السخرية اللاذعة وتميّز أسلوبه الساخر بالحدة والسخط والغضب من رذائل البشرية في: النشيد الهوراسي وأدب الأحداث (أدب الأطفال).

وتعتبر فترة أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر الميلاديين من أعظم فترات السخرية الأدبية إثراءً في الأدب الإنجليزي. فقد كتب غالبية كتاب ذلك العصر وأهمهم أشهر أعمال السخرية، مثل ألكسندر بوب في كتابه بعنوان دنسياد، والذي هاجم فيه الشعراء والكتاب الذين يعتقد أنهم أساءوا استعمال اللغة الإنجليزية. وربما يكون أعظم أعمال السخرية الأدبية في اللغة الإنجليزية كتاب رحلات جليفر للكاتب جوناثان سويت الذي تميّز

أسلوبه بالبساطة والوضوح لدرجة أنه وُضع في قالب قصصي للأطفال، رغم أن الكاتب قصد السخرية من السياسة والعلوم وكثير من المواضيع الأخرى. كما أن رواية جارجانتوا وباتشجرويل للفرنسي فرانسوا رايبليه تسخر من الحياة السياسية والدينية والأعراف الاجتماعية التي سادت القرن 16م، وعبر نيكولاي غوغول عن تهكمه وسخريته من المجتمع الروسي في رواياته ومسرحياته في القرن 19م.

وفي منتصف القرن العشرين الميلادي انتشرت الفكاهة السوداء واحتلت مكان السخرية الأدبية التقليدية منتقدة السلوك البشري، إلا أنها في المقابل لا تقدم أي أمل في الإصلاح.

وشهد الأدب الساخر عودة كبيرة مع الأديب الروسي أنطوان تشيكوف، فمثل الأدب الهجائي أو الفلسفي الساخر كالذي نجده عند مولير، برنارد شو، غوغول... ورفرف في فضاء العالم بشكل واسع في إنتاجاته، ونجح في توظيفه لمواجهة وتعرية الواقع الاجتماعي في ظلّ البؤس والفرقة والظلم نحو مرحلة جديدة في تاريخ وأدب روسيا: "لم يُعرف عن الكاتب الروسي المشهور أنطوان تشيكوف أنه مارس الرسم، كانوا يطلبون منه أن يقترح موضوعات أو يعلق على رسوم كاريكاتيرية. فكان تشيكوف يقترح الفكرة فيقوم فنان من العاملين في المجلة برسم الفكرة. أما التعليقات فقد كان تشيكوف عبارة ما أو نص أدبي أو حتى قصة ويقوم الفنان بتجسيدها كاريكاتيرًا" (إلياس، أبريل 2015، صفحة 44). وأصبح للأدب الساخر فضل كبير في تحويله إلى مادة مضحكة مبكية (الكوميديا السوداء) وعمل نقدي فلسفي قائم على المفارقة وتحويلها إلى إبداعية ساخرة ومريّة، وإن بالتلميح الذي ينطلق من تجارب فكرية وفلسفية مختلفة.

4- السخرية في الأدب العربي:

عرف الأدب العربي أيضًا فنّ السخرية منذ القديم انظر التعليق رقم 1، فكانت السخریات التي مُلئت بها كتب الأدب العربي من قبيل الغفلة والتغافل والتناقض والتلاعب بالألفاظ والتهكم بالعيوب الخلقية والنفسية والجسدية والردّ بالمثل والقلب والعكس... وكان العرب بطبيعتهم كغيرهم من الشعوب والأمم يميلون إلى الطرافة وخفة الروح والمزاح، ويمارسون الفكاهة والسخرية بهدف الدعابة والضحك والمرح وسرور النفس وإشراح القلب، حتى أنّ مجالس الخلفاء في ليالي سمرهم تعجّ بقصص الفكاهة، وكان لها دورها الهام في الترويح عن النفس وتهذيب العقول وإشراح الصدور: "ويعتبر الترويح عن النفس ضرورة من ضرورات الحياة، ولعلّ الفكاهة والضحك والطرائف العذبة والاستماع إلى الشعر وصنوف الحكيم تعتبر محطات للراحة تجدد النشاط وتنير الحيوية في النفوس وتثقف الأذهان وتهذب الطباع وترقّ القلوب" (طاهر، 2003، صفحة 16).

وإذا رجعنا إلى كتب الأدب والنقد والتاريخ القديم، لوجدنا كثيرًا من أخبار الفكاهة والسخرية ونوادر الطرائف التي تحمل الهمز واللمز، عُرفت عند بشار بن برد، الجاحظ، الخطيمية في كتاباتهم بالعديد من ألوانها وطرائقها. كما عبّرت السخرية عن الواقع المعاش والحياة اليومية فكانت سلاحًا حادًا تُسترجع بها الحقوق المسلوقة في صمتٍ وعلانية، لأنها تفوق أيّ خطابٍ إفساحيٍّ مباشرٍ على نحو ما نجد في ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة، البخلاء، أخبار الحمقى والمغفلين، المقامات، النوادر، أخبار الظرفاء...

وترتبط في تراثنا العربي مظاهر وصور السخرية اللاذعة بفنّ الهجاء والذمّ والتعريض، وبنوع من الخشونة والقسوة والفظاظة بما فيها من ألم ومبالغة الواقع؛ فكثيراً ما قويت في الجاهلية المناظرات والمشاحنات المزوجة بالانفعال والضحك والسبّ والشتم والتعريض... ومع انتشار الإسلام تراجعَتْ حدة الهجاء بعدما حرّم الصراعات والنزاعات وانتهاك الحريّات الفردية والطباع الخلقيّة، ما أدّى لتراجع السخرية عند المسلمين عكس كفّار قريش الذين استغلّوها ضدّ الدعوة المحمّدية. وقد تصدّى لهم حسان بن ثابت في كثيرٍ من قصائده مدافعاً عن الإسلام والمسلمين، يدفعه في ذلك قول الرسول (ص): "أهجم وروح القدس معك". ومثلما نجد هجاء حسان بن ثابت الساخر لقبيلة بني عبد المدان ببيان العيوب الجسدية والنفسية:

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن غلظٍ جسمُ البغال وعقول العصافير

أمّا في العصر الأموي فشاعت السخرية والهجاء، وارتبطت بتحوّل نظام الحكم من شوري إلى ملكيّ وراثيّ، وزادت النزاعات القبلية بين العرب وكثُرَت الخلافات الحزبية والسياسية مثلما شاع مع الثلاثي جرير والفرزدق والأخطل، بما ميّزها من ضحكٍ وإساءةٍ للشخص المهجّو. ونذكر مثلاً ما قاله الأخطل في بني كليب قبيلة جرير عن وصفهم بالدناءة والبخل؛ إذ جعل نارههم ضئيلة يطفئها القليل من الماء أو البول حتى لا يشعر الضيف بمكان تواجدهم:

قومٌ إذا استنبح الأضياف كلهم قالوا لأئمتهم بولي على النار

فتمسك البول بخلًا أن تجود به وما تبول لهم إلّا بمقدار

ونذكر ما قاله جرير عن نساء تغلب قبيلة الأخطل وقذف شرفهنّ:

نسوانٌ تغلب لا حلم ولا حسب ولا جمال ولا دين ولا حقر (زاده، الأدب الساخر: أنواعه

وتطوره عبر العصور)

وظهرت خلال التاريخ العربي عدّة شخصيات بارزة اشتهرت بطرائفها الفكاهية، وكان منها الحقيقيّ والخياليّ، مثل شخصية جما، أشعب... وكانت كفيلاً بإثارة الضحك والمتعة حتّى عند سماع اسمها. كما اشتهر كثير من الشعراء خاصّةً في العصر العباسيّ الذي عُرف بفتوحاته الإسلامية التي أخذت عن الهنود وفارس كثيراً، وكان مثل هؤلاء الشعراء معروفين بطابع السخرية في بعض أشعارهم مثلما نجد مع بشار بن برد ومجالس الحسن البصري والجاحظ ومجالس الخليفة أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد.

أمّا في العصر العباسيّ فقد تطوّرت السخرية وأصبحت فنّاً قائماً بذاته يلجأ إليها الشعراء والأدباء للتعبير عن مواقفهم ورؤاهم وتنقضات الواقع، مثلما نجد في فنّ المقامات، ابن المقفّع في كيلة ودمنة، المعري في رسالة الغفران... ولا يخفي علينا هنا أيضاً الجاحظ وهو أكبر من برع في السخرية حتّى فاق فيها معاصريه وجعلها أسلوباً جديداً في الكتابة والتعبير آنذاك وأفرّد لها رسائل وكتباً؛ إذ شرح طبقات المجتمع وكشف طباعهم ونواياهم في نقدٍ لاذعٍ ساخرٍ مليءٍ بالتهكم الذي لا يُعرف قدراً ولا حدّاً، حتّى يقضي على حجج مناوريه ببراهينه المنطقية التي أخذها عن فلاسفة اليونان، فقد عُرف عنه أنّه تأدّب بأداب الفرس وحكمة الهند وفلسفة اليونان حتّى فصّح لسانه وبيّنه وغزر علمه وقويت حجّته بعجائب المخلوقات وطبائعهم: "لقد خطا الجاحظ بالكتابة الفنية خطوةً جديدةً نحو التعبير في جميع الموضوعات في

خلابة وبيان عذب، وتتخذ من الحياة والمجتمع والنفس البشرية موضوعاً لأدبه، واهتم بالألفاظ والمعاني معاً دون أن يحور أحدهما على الآخر" (حسين، 1988، صفحة 44).

غذّ الجاحظ في كتابه البخلاء ورسالة الترييع والتدوير من أوائل الكتاب الذين وظّفوا السخرية بحق، وسعوا للكشف عن جوانب اختلال مجتمع العصر العباسي وواقع المقيمين؛ فسلط الضوء على الفتن الممّشة وخرق المؤلف بحديثه المازج فيه عدّة أنماط تعبيرية عن البخيل بدل الكريم، ولّد نصّاً يحمل صور الإضحك والتهمك بأسلوب غني بالتوريات والتلميحات والتشبيهات... وقد جعلها الجاحظ إستراتيجية فنية للوقوف عند الخفي في كتاباته وسهولة التقبل والتلقي بين الناس لترك في نفوسهم وأفكارهم مفارقةً مضحكةً وناقدةً وهجائيةً في الآن نفسه: " وهذا الأدب الواقعي أعطانا فكرة واضحة عن عصره ومجتمعه بمحاسنه ومساوئه وعاداته وتقاليده بل بألفاظه. فخرينته الأدبية التي أباحت له ذكر العورات والإفصاح عنها بصريح أسائها دفعته إلى حرية مثلها في اللغة" (حسين، 1988، صفحة 45). وأثّرت سخرية الجاحظ فيمن جاء بعده أمثال: ابن قتيبة، ابن الجوزي، ابن عبد ربّه، أبي حيان التوحّيدي، الثوري... ففتحو آفاقاً جديدةً في إستراتيجيات التعبير الساخر من خلال محاكاة السخرية المضحكة أو الناقدة.

أما في العصر الحديث فنجد أيضاً الكثير من صور السخرية الواضحة بعدما عانى العربي من مشاكل أنظمة السياسة والاستعمار، وفي ظلّ غياب الأمن والاستقرار ورغد العيش... وشكّل ذلك مادة الأدب الساخر شعراً ونثراً لتعريّة الواقع المزيف وقده مثلاً نجد مع العراقي أحمد مطر في ديوانه لافتات، الكاتب والصحفي المصري محمود السعدني، توفيق الحكيم في حمار الحكيم، السعيد بوطاجين في رواية أعوذ بالله، أحمد رضا حوحو في حمار الحكيم والزواج، نماذج بشرية... دون أن ننسى طائفة أخرى من الشعراء العرب المجيدين الذين وظّفوا السخرية أمثال: أحمد شوقي، أمل دنقل، نزار قباني، مظفر النواب، إبراهيم عبد القادر المازني في استعمال السخرية بأسلوب مباشر وغير مباشر لتمثيل الراهن العربي المرير ومواجهة تناقضاته منذ القديم حتى الحديث.

5 - أدب السخرية والأدب الهامشي:

تداخلت السخرية مع عدّة أجناس أدبية شعرية ونثرية قديماً وحديثاً، وأسهمت في إبداع مفارقات لغوية ومعنوية قامت على التكنيف والتّرميز لكشف مقاصد ودلالات أكثر تعبيراً. وصار الأدب الساخر من الأنواع الأدبية المفضّلة لدى أعداد كبيرة من القراء والمتابعين خاصّة بعد إدراج السخرية في كثير من المجالات والجرائد عبر صور هزلية نافذة لا يمارسها الهواة فقط بل حتى كبار الكتاب.

ولعل هذا ما أسهم بشكل كبير في رواج الأدب الساخر اليوم في مختلف الميادين، كونه يرصد الواقع الحافل بالتناقضات والمفارقات ليحمل رسالة تعتمد الموقف الطريف بنكتة انتقادية في ظاهرها أو باطنها، وهذا يتطلب رمزية كبيرة لنقل الأحاسيس في شكل لغوي أو إيجائي مباشر وغير مباشر، تحت ستار التورية حيناً والكشف والفضح أحياناً أخرى لمختلف الممارسات غير الأخلاقية أو غير الشرعية... وقد يتجاوز الأدب الساخر حرمة ذلك، فيكون سلاحاً لطيفاً عند الفقير على الغني، والضعيف على القوي، ويكون إستراتيجية تقف على الخفي والتعريض لفضح المستور، بما يحويه من رسائل خفية توقظ الوعي والضمير بصور هازئة أو مبكية ضاحكة... لذلك فالكاتب الساخر

الحق هو الذي يُفلح في أخذ الموقف المؤلم ويرصد تناقضات الواقع ليعيد إنتاجه بصورة ضاحكة، فيبذل مجهوداً كبيراً لينتج نصاً مقتضباً شديد التكثيف الدلالي.

وإذا كان الواقع ينبئ بحضور السخرية الدائم والمستمر في المجال الاجتماعي، كونه ذو طابع جماهيري أكثر منه أدبي، فإنّ هذا النوع المستحدث في الأدب لم يعد يشهد حفاوةً كسابق عهده، وبات يعرف انحساراً بل تغييراً واضحاً في الساحة النقدية. ويمكن أن نتبين السبب في اعتبار النصوص الأدبية الساخرة أدباً هامشياً، هو كون الأدب في حد ذاته اتسم بالجدية المطلقة، فكان حضور السخرية في المشهد الأدبي شعراً أو نثراً يُعتبر حالة تَمَرِّد على قيم الواقع والسياسة عموماً، فنالت حظها من التهميش والإقصاء حتى لا تبلغ مقصدها من إيقاظ الوعي والتعبير عن الحقوق. كما أنّ حضور الأدب الساخر لطالما شكّل مشاهد قرائية استثنائية في حقل النقد، ولطالما عاش تقلّبات كثيرة بسبب أنّه يعتمد على فضح الحياة الواقعية وفضح السلطة بأنواعها، فيتصادم بعنفٍ معها ويجعلها مسرح المواقف الهازئة والناقدة، فيقترب منها لتحمل في طياتها ضحكات باكية أو بسات دامعة تروّج بين الجماهير العامة. ولطالما ظلّ خياراً قليلاً يستعمله ثلّة من الأدباء، ما جعله ينحسر ليرتبط أكثر بالعاميات والأدب الشعبي كونه يهتم بالقضايا الاجتماعية ويعبّر الواقع الزائف ويصوّر المأساة التي تعيد إلى الذات والحقيقة...

وبالرغم من ذلك كان للسخرية صداها الواسع لدى المتلقين الذين اعتبروها وسيلةً تعبيريةً عن النفس والأحاسيس والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية للطبقات الشعبية، وكانت استراتيجيةً فنيةً ورمزيةً تقف عند الخفي وتفضح المستور في صورٍ مُضحكةٍ مُبكيةٍ، وتكشف رؤيتها للمجتمع وواقع المهمشين في ظلّ تسلّط وتجرّ الحكام وتجاوزاتهم غير الشرعية، وإن أعادهم بعدها الضحك إلى ذاتهم وحقيقة حالهم.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا بدونية قيمته لأنّها من باب إقصائه، وللتأكد من حقيقة ذلك فلنُقرأ ولنتمعّق أكثر ما شئنا في نصوص ساخرة سواء أكانت أدبية أم غير أدبية لم يُحسّن أداءها إلا من أوتي مراساً حقيقياً يجعلها تترفع عن أنها مجرد وسيلة للسخرية من الآخرين. لذلك فهنا تنوّعت واختلفت تعبيرات الأدباء وأساليبهم الفنية عن تجاربهم في الحياة بسخرية فاضحة، إلا أنّها لم تتجذّر من حلة الجدّة والالتزام واحترام طرق وأساليب الكتابة الفنية مهما كانت.

ومن هنا ندعو لتخصيص دراساتٍ نقديةٍ تستفيض كوامنه العديدة، فيعود كسابق عهده أيام أن كان لهذا الفن أهله ومريده وكان له أثره البالغ في النفوس. واليوم نفتقد حضوره الأكاديمي المكثف دراسةً وتنظيراً، وما أحوجنا إلى تمثله الراقي في أهدافه.

الخاتمة:

تبقى السخرية موهبةً يُفطر عليها بعض الناس ويُحرم منها آخرون، ويبقى الأدب الساخر فنّاً رفيعاً لا يمارسه بحقّ إلا من اتّسم بقدرٍ عالٍ من الموهبة الفنية لتجسيد المواقف المؤلمة بأسلوبٍ ذكيٍّ مثيرٍ، ويبقى هدف الأدب الساخر ابتداع طرق فنيةٍ جديدةٍ في التعبير بحكمةٍ مضحكةٍ ساخرةٍ تمس جوانب مخفية أو تصوّر المغيب والمسكوت عنه أو تكتب الاختلاف الحاصل، وتعيد الراحة والسكينة للنفس ولو مؤقتاً.

ومثلما كان حضور السخرية في المشهد الأدبي معبّراً عن حالة تَمَرِّدٍ، فقد أصبح هذا التَمَرِّد مرتبطاً بالواقع والأفكار السائدة في المجتمع والسياسة، وكانت السخرية قوةً رادمةً للهوة مع المتلقي... ولأن السخرية سمّة اجتماعية

وإنسانية عامة، فستظل ماثلة في كثير من النتاجات الإبداعية والأدبية وإن بمستويات متفاوتة تستشعر ذكاء القارئ وقدرة على التقاط الدلالات الخفية من وراءها.

قائمة المراجع:

- السيد عبد الحليم محمد حسين. (1988). السخرية في أدب الجاحظ (الإصدار الطبعة الأولى). ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.
- بوحوشة إلياس. (أفريل 2015). الكاريكاتير بوصفه نصًا، ملامح عن إجرائية الكاريكاتير بين الأدب القصصي والدرامي والسينما والتشكيل. مجلة النص .
- سعيد علوش. (1985). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة) (الإصدار الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- شمسي واقف زاده. (21 / 10 / 1390هـ). الأدب الساخر: أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية. فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثالثة (العدد الثاني عشر).
- طوني بينيت، لورانس غروسميرغ، ميجان موريس. (2010). مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع (الإصدار الطبعة الأولى). ترجمة سعيد الغانمي، المحرر: بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- عبد اللطيف مرزوق السلمي. (2021). ظاهرة السخرية في الخطاب البصري، رسوم الكاريكاتير في الصحف السعودية أمودجا. مجلة الكلام، المجلد السادس (العدد الثاني).
- كاظم شمهود طاهر. (2003). فن الكاريكاتير، لمحات عن بداياته وحاضره وعالمها (الإصدار الطبعة الأولى). أزمنة للنشر والتوزيع.
- مجدي وهبة، كامل المهندس. (1984). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (الإصدار الطبعة الثانية منقحة ومزودة). بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.
- نعمان أمين محمد أمين طه. (1979). السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع هجري. (الطبعة الأولى، المحرر) مصر: دار التوفيقية للطباعة بالأزهر.